

الكفة والكلك

سالم الالوسي باحث آثاري

1- تمهيد: خلف لنا اجدادنا العراقيون القدماء وسائل نقل نهريّة كثيرة لا زال البعض منها مستعملا الى يومنا هذا كالمشاحيف المستعملة بكثرة في القسم الجنوبي من العراق وفي اهوراه وبطائحها، فالمشحوف شبيه بالزورق الذي خلفه لنا السومريون، وفي الاثار العراقية المكتشفة في اور قرب الناصرية وفي مواطن اثرية اخرى وجدت نماذج من الزوارق، منها ما هو مصنوع من القار، والاخر من الطين المفخور، او المعدن كالنحاس والفضة والذهب، ومن يتجول في ابهاء المتحف العراقي ويمتّع نظره بالاثار السومرية او البابلية يجد كثيرا من نماذج هذه الزوارق التي لا تختلف بشكلها عما هو مستعمل اليوم وقد تكون الطريقة التي اتبعها القدماء في صنعها هي الطريقة نفسها التي يستخدمها سكان الاهوار في الجنوب في عصرنا الحالي. ومن بين وسائل النقل القديمة (الكلك) وتجمع على (اكلاك - وهي الارماث)، فهو وسيلة نقل نهريّة استخدمها القدماء في نقل البضائع وفي التنقل وفي الحروب ايضا، والمنحوتات الاشورية حافلة بصور الاكلاك، الا ان من المؤسف ان هذه الوسيلة قد بطل استعمالها ولم يعد لها وجود في الوقت الحاضر فمنذ اكثر من ربع قرن اختفت الاكلاك او تكاد، ولم نعد نشاهدها وهي تناسب ببطء في نهري دجلة والفرات، لاسيما في وسط العراق وجنوبه، اما في الشمال فتستعمل بنطاق ضيق جدا بسبب التطور الحاصل في صناعة وسائل النقل النهريّة وكذلك بناء السدود على النهرين لاغراض ضبط مياه النهر ايام الفيضانات وتوزيعها للري والزراعة. ومن الوسائل النهريّة القديمة (القفة) - وتجمع على قفف وقفاف - اما الاهالي فيلفظونها (كفة) وتجمع على كفف وكفاف - بكاف فارسية) ، والقفة لغّة، الزبيل، والقفة فرعة يابسة، وقد جاء في الحكم: القفة: كهية القرعة، تتخذ من خوص ونحوه تجعل فيه المرأة قطنها، وانشد ابن يري شاهدا على قول الجوهري، القفة القرعة اليابسة للراجز: رب عجوز رأسها كالقفة تمشي بخف معها هرشفة وقد ورد لفظ القفة في بعض كتب اللغة بصيغة (القفعة). 2- وصف القفة: والقفة، جسم كروي ناقص مفرطح على هيئة سلة او سفت كبير، تصنع من اعواد الرمان او الصفصاف، وتتألف من قسمين: أ- هيكلها وتتألف من اعواد الصفصاف او الرمان او التوت على هيئة الاضلاع. ب- نسيجها او قشرتها على وجه اصح، ويتكون النسيج من الخوص والحلفاء والبردي يخيطنونها مع الاضلاع، والخيوط المستعملة خيوط غليظة تصنع من ليف النخيل او ليف النارجيل (اي جوز الهند). وعند اكمالهم النسيج يطلون السطح بالقار (السيالي) ويتركونها لتجف عدة ايام، تطلى بعدها بطبقة سميكة من (القار) الثخين الذي يعرفه عند القفايين بـ (الدوسة). بسمك سنتمترين ويختلف سمك القار باختلاف حجم القفة، الا انه لا يزيد في جميع الاحوال على اربع سنتمترات. ولا يوجد للقفة دفة (سكان) كما هو الحال في بعض الزوارق والاكلاك، ولا صار لها كالسفينة. وبامكان شخص واحد ان يسير بها الى الوجهة التي يريد ان يريها الا ان الصعوبة تكمن في سيرها عكس تيار الماء الجاري، فيلجأ الملاحون الى سحبها بالحبال اذا كانت قفة كبيرة او متوسطة الحجم. والشخص الذي يقوم بجر القفة كان يعرف بالصانع، ويستعمل في سياقتها (المجذاف) ويسمى عند اهل المهنة بـ (الغرافة). وفي كثير من الاحيان يترك الملاحون القفة على حالها لتسوقها المياه الجارية نزولا عند مصبها. وكما ان هذه الوسيلة النهريّة غريبة بشكلها فان صنعها يستلزم مهارة فائقة ويتطلب ذكاء. وتستعمل القفف لنقل الاشخاص والحيوانات ولحمل البضائع كالفواكه والخضر والمواد الاخرى، وكذلك تستعمل في صيد الاسماك، اما بواسطة الشبكة (الحذافة) او بالشعب وكان الناس يجدون في القفة وغيرها من وسائل النقل النهريّة خير ملجأ يقيهم من شر الامراض الفتاكة، وهذا ما حدث عند فيضان نهر دجلة وقد استخدمها بعض الرحالة الاجانب مكانا للنوم لنظافتها. كما ذكر ذلك الرحالة الانكليزي السر واليس بودج في رحلته، فقد ذكر: (انني سافرت شخصا بقفة كبيرة منها اياما وكان ذلك ايان فيضان الفرات الذي احاط ببابل وفي فرع الهندية ونمت فيها ليلا). وعمر القفة لا يزيد على خمسة وعشرين عاما. ومن المؤسف حقا ان القفة تكاد تنقرض كما انقرض الرمث (الكلك) من قبلها، وقد بقي استعمالها محدودا في بعض المدن والقصبات في الفرات الاوسط

وفي الجنوب وكذلك في نهر دجلة جنوبي العراق. وجود القفة كما ذكرنا في اول المقال قديم جدا، فهي والكلك في القدمية سيان وقد وردت في بعض (الكتب المقدسة والمصادر التاريخية ما يشير الى استعمالها منذ اقدم العهود، وقد جاء في كلام سرجون الاولى الاكدي (حدود 2350 ق.م): (سرجون الاول ، ملك قادر، ملك اكد انا هو، حبلت بي امي بغير مباشرة والدي لها، بينما كان عمي يعتو في البلاد، وقد حبلت بي في مدينة (ازوبيراني) الواقعة على شط الفرات والدتي اصبحت حاملا وولدتني بالعالم في محل مخفي ووضعتني في قفة حقيرة من الصفصاف مطلى قير..). وهذه الرواية عن لسان مؤسس الانبراطورية الاكديّة تشير الى وجود القفة منذ ذلك العهد الواغل في القدم ، كما تشير الى المواد التي كانت تصنع منها كالصفصاف وطلاتها بالفار. كما كان للمصريين القدماء اطلاع واسع في اشتغال القفة والظاهر انهم اخذوها عن البابليين والاشوريين. وما اشبه قصة الملك سرجون بقصة النبي موسى (ع)، ذلك كما ترويه بعض المصادر من ان كاهن فرعون تقدم من سيده وانبأه بان مولودا ذكرا سيلد من العبرانيين وسينزع منه الملك ويتغلب عليه، وخير طريقة للخلاص من هذا المولود الجديد هو قتله قبل ان يكبر ويشتد عوده، فاستجاب فرعون مصر لهذه النصيحة وامر بقتل المواليد الجدد الذكور من العبرانيين، وكان ما اراد الكاهن. واخذت القابلات يقتلن جميع من يلد بواسطتهن. ولما ولد موسى احتارت والدته (يوكابد) في اخفائه فقد اشفقت على وليدها من ان تنالها يد الفرعون ولم تسلمه الى رجال فرعون ثم احتفظت به وارضعته ثلاثة اشهر، ثم خافت ان يصل خبره الى رعمسيس او الى وزيره فينزلان عليها غضبهما،: (فاخذت له سبطا من بردي وطلته بالحرر والزفت وجعلت الولد فيه.. والقته به في اليم، ووقفت اخته من بعيد لترى ماذا يفعل به فنزلت ابنة فرعون (ميريس) الى النهر لتغتسل وكانت جواريتها ماشيات على جانب النهر فرأت السبط وفي داخله الولد فاذا هو صبي بيكي فرقت له.. الى آخر هذه القصة. التي تشبه الى حد كبير قصة سرجون الاكدي كما ذكرنا. وقد عثر في موقع نينوى العاصمة الاشورية، خلال التنقيبات الاثرية التي تمت في القرن التاسع عشر، على الواح مرمر منحوتة بصور وسائل نهريّة مختلفة الاشكال ومن بينها صورة لقفة كما يشاهد في الرسم المنشور ضمن هذا المقال. الصورة تمثل لوحا من المرمر نحت نحتا فائقا بصورة قفة يسيرها شخصان يمسك كل منهما بمجذافين مثبتين بالقفة، على خلاف ما كان مستعملا في العراق في العصور المتأخرة، فالقفاف (او كما يسميه اهل الصنعة - القفجي او الكفجي) كان يستخدم في تسيير القفة مجذافا (او غرافة) سائبا، كما كنا نشاهد ذلك في نهر دجلة قبل اكثر من ربع قرن. ويشاهد في اللوح ايضا رجل يصطاد السمك وهو يسبح على ظهر (جراب) منفوخ، واستعمال الاجرية المنفوخة في السباحة وعبور الانهار وفي الحروب النهريّة، كان شائعا في العصور الاشورية، كما يستدل على ذلك من الاثار المكتشفة في نمرود ونيوى ويرتقي زمن هذا اللوح الى القرن السابع قبل الميلاد. ويا حبذا لو انتبه المسؤولون واهص منهم بالذكر دوائر السياحة والآثار العامة الى وجوب الاحتفاظ بنماذج من القفف واستغلالها لاغراض سياحية، وكذلك وزارة المواصلات فما يضيرها لو عملت على انشاء متحف يضم نماذج من وسائل النقل التي استعملت في العراق ومن بينها الكلك والقفة.